الحب تحت المطر

١


٢

الحب تحت المطر

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب ١٩٨٨

دار الشروق



ـ ١ ـ

تيـار من الخلق لا ينقطع لله يتلاطـم فى جـميـع الاتجـاهات . تند عنه أصـوات من شـتى الطبـقـات . ويشكل فى جـملتـه خليطا من ألوان الطيف . سـارا جنبا إلـى جنب صـامتين . هى فى فسـتـان بنى قصـيـر وشـعـرها الأسـود يتـهـدل حـول الرأس وفـوق الجبين . وهو بقميصه الأزرق وبنطلونه الرمادى وشعره المرسل إلى اليمين . في عينيها نظرة عسلية مستطلعة . وفى عينيه جحوظ خفيف ولكننه يوائم تماما أنفه الحادالمستقيم . وبقدر ما استسلمت للمشى كان هو بتحين الفرص . قال :

ـ الزحام لا بطاق .

فتمتمت باسمة :

ـ ولكه مسل للغاية .

واعتبر ردها مناورة لطيفة ليس إلا . بل استجابة لرغبته القلبية . وأشـار بذراعه المفـتولة إلى كـافتـيريا هارون فـمـالت مـعـه إليـهـا بلا تردد . ومـضـيـا إلى الحديقـة الخلفـيـة فاختـارا مـجلسا شبه خـال تحت

تكعيبة اللبلاد. وتفحصا المكان، وتبادلا نظرات. استشعر دون شكاية حرارة الجو المشبعة بالرطوبة. وطلب قدحين من شراب الليمون. وكان يتوثب للكلام فيما يهمه ولكنه قال لنفسه فليأت الكلام فى وقته وبطريقة عفوية فهذا أفضل. قال:

ـ مضى عهد الجامعة كحلم.

فقالت تكمل جملته:

ـ بمتاعبة ومسراته.

ـ وما هى إلا أشهر حتى يتسلم كل منا وظيفته.

فأحنت رأسها بالايجاب ثم تساءلت:

ـ ولكن إلى أين تمضى الدنيا؟

هذا السؤال الذى يرتطم به فى كل مكان وزمان. إلى أين؟ حرب أم سلام؟. وطوفان الشائعات؟

ـ لتمض إلى حيث تشاء.

وشربا الليمون حتى دمعت عيناهما ثم سألها:

ـ وما أخبار أخيك إبراهيم؟

ـ بخير، رسائله قليلة، ولكنه يجىء من الجبهة مرة كل شهر..

وكأنما أرادت أن تعتذر عنه فقالت:

ـ مرزوق.. أو لم تكن وحيد أبويك لاستدعيت مثله إلى الجندية..

فلم يعلق بحرف . . واستسلما معا للصمت . وعاوده التوثب للكلام فى موضوعه فقال ضحاحكا :

ـ لا يجوز أن نضفى البراءة على اجتماعنا أكثر من ذلك . .

فلعبت فى عينيها نظرة مرحة وقالت :

ـإذن فاجتماعنا برئ!

فقال بجدية :

ـ أعنى الموضوع الذى حدثتك عنه أختى سنية . .

فقالت بحذر :

ـ لا تنقصك الصيقات فيما أعلم؟

فقال بجدية أكثر :

ـ نحن نتحرك بدافع اللهو أكثر ثم يجئ وقت فلا يقنعنا إلا الحب الحقيقى . .

ـ الحقيقى؟

ـ هذا ما أعنيه تماما يا عليات . .

فترددت قليلا ثم تساءلت :

ـ ألا عيد الزواج فى حالتك سابقا لأوانه؟

فقال بزدراء :

ـ ذلك من كلام السلف ولكن لا أهمية للوقت ما دمنا نسيطر على مصيرنا . .

فسألته باهتمام :

ـ وهل أنت واثق من مشاعرك؟

فرمقها بحنان وهو يقول :

ـ من عيوبى الجوهرية أننى لا أحسن التعبير عن مشاعرى، كم مرة التقينا؟ ومع ذلك فلم أنوه بجمالك أو ثقافتك مرة واحدة :

ولما لم تنبس سألها بحرارة :

ـ لم لا تتكلمين؟

فقالت وهى تتنهد .

ـ لا أدرى، كأننى خائفة . .

فقال برقة :

ـ الحق أنى أحبك كأعز شىء فى الدنيا .

فغمغمت باسمة :

ـ هذا أفضل . .

فضحك بسرور وقال :

ـ عندى ما هو أجكل . .

واعترفت قائلة :

ـ والحق أنى لم أكن سلبية فى المعركة وأنت تعلم ذلك . .

فاستخفه الطرب وقال :

ـ اعتبريني مجنونا بك!

فخفضت بصرها وهمست:

ـ وأنا سعيدة كما يجدر بانسان يبادلك مشاعرك..

فاجتاحه السرور والالهام وقال:

ـ ما كان أحب إلى أن أتلقى هذه السعادة فى مكان لا يشاركنا فيه أحد.

وضحكا معا. وصمتا وهما يتبادلان النظرات. واقترح عليها الذهاب إلى حديقة ما. ووقاما وهى تقول:

ـ لا تنسى أنه توجد فى الطريق متاعب!

فهز منكبيه قائلا:

أعتقد أنها متاعب لا تذكر بالقياس إلى متاعب العالم!

ـ ٢ ـ

انتصف الليل فخلت مقهى الانشراح بشارع الشيخ قمر من زبائنها. لم يبق من عمالها إلا عم عبده بدران النادل وعشماوى ماسح الأحذية. ومضى عشماوى بهيكله الضخم الخاوى إلى الخارج فجلس القرفصاء جنب مدخل المقهى ينظر إلى لا شىء بعينيه العشماوين. أما عم عبده فاقتعد كرسيا وسط المدخل وأشعل سيجارة. وبعد ربع ساعة مرقت سيارة مارسيدس بيضاء

أمـام المقـهى ثم وقـفت على مـبعـدة يسـيـرة لصق الطوار فـرفع عشماوى رأسه نحوها وهو يقول :

ـ الأستاذ حسنى حجازى .

وقام عم عبده بدران ليستقبل القادم الذى أقبل بجسمه الطويل النحيل ورأسه الضـخم رافلا فى بدلة بيضاء آية فى الأناقة . حيا الرجلين باسميهما واتخذ مجلسه على حين مضى عم عبده ليجئه بالنارجيلة وزحف عشماوى ناحيته ليمسح حذاءه . ولأن حسنى حجازى هو زبون ما بعد منتصف الليل الوحيد ـ كلما سمح له الوقت ـ فقد نشأت بينه وبين الرجلين علاقة حميمة وحوار متبادل . والحق أنه يأنس إلى وقار عم عبده ـ فى الستين من عمره ـ ويعجب ببذلة عمله العتيقة وصلعته المستديرة الضاربة للاحمرار ، ونظرة عينيه الثقيلة الطيبة . وأيضا فهو يعجب كثيرا بعشاوى الذى لا يعرف له سن وان قدره بما بين السبعين والثمانين ، ويثيره منظر هيكله الضخم صموده فى معترك الحياة رغم هوان الصحة والسمع والنظر وزوال المجد . وكان عم عبده يعنى بنارجيلة الأستاذ عناية خاصة . لا من أجل البقشيش فحسب ، ولكن لعلمه بأنها السر وراء زيارات الأستاذ للانشراح بالإضافة إلى حنينه إلى مسقط رأسه بشارع الشيخ قمر . والأستاذ حسنى فى الخمسين ولكنه يفيض بحيوية عجيبة ولم تشب له شعرة واحدة ، ويبدو أنه يسعد حقيقة بوجوده فى المقهى المتواضع بين صاحبيه وفى مناجاته الطويلة مع النارجيلة . وكالعادة بدأ الحديث يتبادل النيران فى الجبهة ، وتساؤلات عن الغد القريب والبعيد ، وكلمات رقيقة

بقصد الاطمئنان عن إبراهيم ابن عم عبده وغيره من المجندين من أهل درب الحلة موطن عشماوى. وكان يعتبر عشماوى نموذجا لجماهير غفيرة لا يتاح له الاتصال بها هى المتحمسة حقا للقتال بلا قيد ولا شرط، وبلا خوف، وبلا اكتراث للعواقب. وقال لنفسه علام يخافون وهم لا يملكون إلا الكرامة والأسطورة. وقال لنفسه أيضا أن المعذبين حقا هم الوطنيون الصادقون. ولما فرغ عشماوى من مسح الحذاء اقترب عم عبده بدران من مجلس الأستاذ ومال نحوه قليلا وهو يقول:

ـ عليات ابنتى طلب يدها شاب من زملائها.

فانبعت فى صدر الأستاذ اهتمام حقيقى وقال:

ـ مبارك يا عمر عبده.

فقال برضى وفى غير ما حماس:

ـ الستر مطلوب ولكن العريس ـ مثلها ـ لم يتوظف بعد!

ـ هكذا تجرى الأمور فى هذه الأيام.

ـ ولكنى رجل مثقل بالأعباء والابن الوحيد الذى أتم دراسته مجند فى الجبهة كما تعلم.

فقال حسنى حجازى بثقة:

ـ ابنتك متعلمة وهى تدرك ذلك كله، وماذا يقال عن العريس؟

فقال الرجل بامتعاض:

ـ على الحديدة. حال أبيه كحالى، وهو كاتب فى محل تجارى . .

ـ جند؟

ـ معفى لأنه وحيد أبويه .

ثم مستدركا :

ـ بقية ذريته بنات واحداهن زميلة وصديقة حميمة لعليات .

وهنئ الأستاذ ملبا بتدخين النارجيلة ومضى يقول لنفسه أن النادل الطيب يعيش أيضا فى أسطورة ، وأن الحقيقة خليقة بأن تصعقه، وأن أخلاقنا غير حقيقية وهى تقوم على الريح . وقال لعم عبده :

ـ توجد فتيات ذكيات، يفضلن الاقتران بالكهول الأغنياء طلبا للاستقرار فى الحياة . .

فهز الرجل رأسه فى حيرة وقال :

ـ لا أدرى .

ـ على أى حال فان كريمتك ليست واحدة منهن .

ـ ربنا معها .

ـ آمين .

فقال عم عبده بدران بحماس طارئ :

ـ عليات فتاة عاية الهمة، سعت إلى الرزق حتى وهى طالبة،

واكتسبت نقودا لا بأس بها من الترجمة فاستطاعت أن تظهر فى الجامعة بالمظهر اللائق الذى لم يكن فى مقدورى توفيره لها . .

ـ فتاة عالية الهمة حقا . .

ـ ولكن هل ادخرت من النقود ما يكفى لتجهيز ولو حجرة واحدة؟

ـ هذه هى المسألة . .

ـ أما هى فلا يهمها ذلك على الاطلاق . .

فضحك حسنى حجازى وقال :

ـ جيل يستحق التحية والاكبار .

وسرحت خواطره إلى شقته الأنيقة بشارع شريف فقال لنفسه بأن اصراع الحقيقى فى هذه الحياة هو ما يقوم بين الحقائق والأساطير . وقال له عم عبده :

ـ سعادتك لم تفكر فى الزواج أبدا . . ؟

ـ أبدا .

ثم أشار إليه بسبابته محذرا وقال :

ـ ولم أندم على ذلك قط .

وتذكر كيف سأله صحفى فى ريبورتاج عابر بالاستديو .

ـ ضمن مجموعة من العاملين فى فيلم ـ سأله عن فلسفته فى الحياة ، وكيف بهت ولم يحر جوابا .

ـ ولكن أهو حقا بلا فلسفة؟!

-٣-

ثمينة جدا الساعات القلائل التى يقضيها إبراهيم عبده فى القاهرة. تأبطت شقيقته عليات ذراعه وهو فى بذلته العسكرية ومضيا يشقان الطريق وسط خضم هائل من البشر تحت فيض متدفق من الأضواء. وكان يشبهها لدرجة محسوسة، بعينيه العسليتين خاصة، ورغم ما يأنفه من فطس خفيف وما فى شفتيه من دسامة، وما فى بنيانه من متانة. وكان يلتهم كل شىء بحواسه، ويتلقى سيلا متواصلا من المشاعر، ويدخل أحيانا فى وجود غريب عابر بين الواقع والحلم، أو يتردد مع خواطره بين الواقع والحلم. وسألته أخته:

ـ كيف تجد الليلة صدمة الانتقال من باطن الأرض المزلزلة بالانفجارات إلى دنيا القاهرة الثملة بالصخب؟

وكانت تستعيد كلماته القديمة بالحرف، ولكنه أجاب بلا اكتراث:

ـ أصبحت عادة.

ـ وامتعاضك العتيد؟

فأجاب بنفس اللهجة:

ـ أصبح عادة أيضا.

ثم وهو يبتسم :

ـ الموت نفسه أصبح عادة يومية .

فسألته برقة وهى تتفادى من شاب ينطلق كالصروخ :

ـ كيف تريد لنا أن نعيش ؟

ـ لا أريد تغيير نظام الكون ، أريد فقط أن أشعر بأننى أستقبل بين أصدقائى استقبال العائد من جبهة مشتعلة فى سبيل الدفاع عن الوطن .

فلاذت بالصمت فمضى وهو يقول :

ـ لا أعنى تكريما أو هتاما . أطمع فقط فى شىء من الاهتمام والجدية .

ـ ولكن لا حديث للناس إلا الحرب !

ـ . . . دون المستوى المطلوب . .

فقال بعد تردد :

ـ لهم بعض العذر !

ـ اللعنة . . مهما كان ، مهما كان ، فالموت شىء حقيقى . .
فضغطت على ذراعه وقالت :

ـ لا تسمح لشىء بأن يفسد عليك ساعة طيبة . .

ـ نتناول بعض الشطائر ثم نذهب إلى السينما .

فلم يعارض ولكنه قال :

ـ غريب أننى لم أعرف خطيبك مرزوق من قبل . .

ـ ألا يعجبك؟

ـ شكله لطيف ولكن أخته ألطف!

فنظرت إليه باهتمام وهما يقفان فى ظل عند مشرب قهوة على الناصية وتساءلت :

ـ سنية؟

ـ أجل، سبقتنى بعام، وهى موظفة بالاصلاح الزراعى . الظاهر أنها أعجبتك؟

فقال بيقين :

ـ جدا . .

فضحكت عليات وتساءلت؟

ـ أعتقد أنى نلت منها مائة نظرة . .

ـ كل ذلك من وراء ظهورنا؟

ـ المهم . .

ولما سكت تساءلت :

ـ المهم؟

ـ أهى لائقة كزوجة؟

ـ ما شروط اللياقة فى نظرك؟

ـ نحن كما تعلمين أسرة محافظة!

ـ أعترف بأنك متشبع جدا بأبى .

ـ تهمنى الأخلاق .

فلفتته إلى إعلان سينمائى فاضح يوشك أن يكون مضاجعة وقالت محذرة :

ـ اخفض صوتك . .

ـ أنت نفسك محافظة فى الناحية الأخلاقية على الأقل . .

ـ أشكر لك حسن ظنك . .

ـ والآن خبرينى؟

فقالت بضيق :

ـ ما أعرفه عنها يشهد بأنها ممتازة .

ـ لا أحب أن أقلق .

فضحكت ولكنها قالت بعطف .

ـ لا يجوز أن يقلق جندى لأسباب تجبئه من المدينة!

وانطفأت الأنوار بغتة كأنما ماتت بسكتة فغرق الطريق فى ظلام دامس . وهللت هتافات شابة مهرجة فى عبث ومجون، وصرصرت آلات التنبيه بالسيارات . توترت أعصاب إبراهيم،

واجتاح رأسه أصداء أوامر خاطفة بالاستعداد والقبوع فى المواقع، ولكن جاءه صوت عليات ناعما وهى تقول:

ـ تنطفئ الأنوار كثيرا لأسباب مجهولة.

فاسترد راحته، وقبض على يدها فتراجع بها حتى لامس ظهراهما جدار المشرب، وسألها:

ـ أيطول ذلك؟

ـ من دقيقة لساعة. وأنت وحظك!

وسرعان ما ألفت عيناه الظلام فرجع يسألها:

ـ تنصحينني؟

ـ أعنى سنية!

فضحكت قائلة:

ـ سنية!.. تزوجها أن كنت تحبها..

ـ الحب ليس المشكلة!

فسألته ساخرة:

ـ بم نحكم عليك لو أخذنا بماضيك؟

ـ ليس الرجل كالمرأة!

فضربت الأرض بقدمها غيظا ولكنها لم تنبس، فعاد يقول:

ـ لاتريدين أن تعطينى رأيا قاطعا..

فقالت بحدة

ـ قلت إنها ممتازة فتزوجها أن كنت تحبها .

ـ سأقابلها صباح الغد .

فضحكت عليات وتساءلت :

ـ لماذا يطفئون الأنوار إذا كانت أمهر المؤامرات تدبر فى رابعة النهار؟!

ـ ٤ ـ

لم يكن الجو شديد الحرارة ولكن أشعة الشمس تدفقت حامية لاسعة، وترامت تحت دفقاتها حديقة الأسماك عارية أو شبه عارية. وكانا أول قادمين. تمشيا بلا هدف وإبراهيم يقول لنفسه: مثل آدم وحواء، مثل آدم وحواء قبل الخطيئة، وابتسم لخواطره وهو لا يدرى فضبطت سنية ابتسامته وسألته بحياء :

ـ ترى ماذا يضحكك؟

فارتبك ثانيا ولكنه قال :

لأنى سعيد!

وبسط راحتيه لأشعة الشمس وقال :

ـ يوجد مجلس تحت الجبلاية .

وذهبا صوب الجبلاية تفعم أنفيهما رائحة نباتية تزفرها

الأعشاب المخضلة برشاش الماء . وكانت متوسطة القامة أو دون ذلك بقليل فلم تجاوز قمة رأسها الكستنائى منكبه ولكنها كانت متناسقة التكوين وذات عينين خضراوين صافيتين . وجلسا متجاورين فوق أريكة من جذع النخيل . قال :

ـ حضورك منة عظيمة .

فقالت ببساطة :

ـ لسنا غرباء فنحن أسرة واحدة .

وأضفى القبو على الجو قتامة ، وجرت فى ثناياه نسمة رطيبة كحال الأماكن التى لا تزورها الشمس . وكانت أعينهما تكلمت كثيرا أمس فم يشعراً فى جلستهما بغربة مطلقة . ولاحظ أنها تنظر إلى بدلته العسكرية بحب استطلاع فسألها :

ـ ليس لك أهل مجندون؟

فهزت رأسها بالنفى فقال :

ـ أنها لا تمنع من التفكير فى المستقبل كأننا نعيش أبدا!

فقالت بعذوبة وحرارة :

ـ الأعمار بيد الله وحده .

فابتسم فى تسليم وأرتياح . وقال لنفسه لا يمكن اقتحام الموضوع بلا تمهيد ، ولا يجوز ـ فى ذات الوقت ـ أن يطول التمهيد ما دامت فرصة اللقاء لمن تتجدد قبل شهر كامل أن وجدت أصلاف ولعلها حامت حول الأفكار نفسها ولكنها وجدت مخرجا فقالت :

ـ الحياة هناك شاقة بلا شك؟

وامتن لسماع ملاحظتها التى لا يسمعها عادة بعيدا عن نطاق أسرته فقال:

ـ فوق ما تتصورين!

ـ وكيف تتحملونها؟

فقال بصدق:

ـ أصبحت أومن بأن الإنسان يستطيع أن يعيش فى الجحيم نفسها وأن يألفها فى النهاية.

ثم نظر إليها باهتمام وقال:

ـ ولا يمنعه ذلك من التطلع إلى النعيم والسعادة.

فابتسمت، وتورد وجهها القمحى، وتبدت سعيدة، فقال لنفسه أنها ليست طفلة ولا ممثلة ولكنها قوية الشخصية والأخلاق، وسألته:

ـ ترى هل تقوم الحرب من جديد؟

فقال وكأنه لم يسمع سؤالها:

ـ علمت أنك غير مخطوبة!

ـ إذن فأنت تجرى عنى تحريات!

ـ لنا صديق مشترك، عليات..

ـ ولم تشغل بالك بما لا يهمك؟

ـ وهنأتنى على إعجابى بك.

ـ حقا؟

فقال بلهجة ذات مغزى:

ـ وتمت لى السعادة والتوفيق..

ومرت فترة صمت مفعمة بالرضى. واعتقد أنه اجتاز خطا هاما، وأنه اجتازه بنجاح، وأنه لم يضع دقيقة من وقته الغالى سدى. وقررت هى التهرب من نظراته فسألته.

ـ لم تجبنى على سؤال هل تقوم الحرب من جديد؟

فقال وهو نشوان بعواطفه:

ـ تحدثت عن أشياء يقينية مثل إعجابى بك.

ـ ولكنك لا تعرف عنى شيئا..

ـ القلب يعرف أكثر ما يتصور العقل!

فغمغمت ولكنه لم يسمع فسألها:

ـ ماذا تقولين؟ أنت لم تتكلمى بعد!

فقالت ببساطة وصراحة وبنبرة غير ملعثمة:

ـ أنا سعيدة!

فتجلت فى عينيه نظرة ممتنة، وتناول يدها بين يديه بحرارة وقال:

ـ فى المرة القادمة سنخطو خطوة حاسمة، وحتى يجئ ذلك الوقت سأحيا حياة غنيةوجديدة رغم كل شىء . .

ـ حفظك الله من كل شىء . .

فقال بسرور :

ـ كسبت قلبا جديدا سيشعر بنا على نحو ما .

وتفكرت فيما يعنيه، وفطن هو إلى ما تفكر فيه فقال :

ـ يخيل إلى أحن أحدا لا يشعر بنا سوى أهلنا!

فارتبكت، ثم قالت كالمعتذرة :

ـ إنها تجربة جديدة علينا، هذا هو الواقع، ولكن ماذا عما يجب أن يكون؟ ومن رأى الأستاذ حسنى أنها سياسة مرسومة . .

ـ من الأستاذ حسنى؟

ـ موظف كبير فى قسمنا بالمصلحة . .

ـ وماذا يعنى؟

ـ يعنى أنهم لا يريدون تعبئة الشعب للحرب إلا قبيل دخول المعركة .

ـ الحق أنى لا أفهم!

ـ ولا أنا، ولا يدعى أحد بأنه يفهم، هل ستقوم الحرب من جديد؟!

ـ فى الجبهة نؤمن بذلك .

ـ هنا لا نكاد نصدق !

ـ كيف ترون الأمر ؟

ـ ممكن أن تسمع كافة المتناقضات . .

فضحك إبراهيم وقال :

ـ انكمتودون أن تجدوا النصر يوما ضمن أخبار الصحف . .

وضحكت . وبالضحك أفلتا من حصار القلق فعادا إلى موعدهما تحت الجبلاية . وتبادلا نظرة اعتذار طويلة وحنونة .

ـ ٥ ـ

قام حسنى حجازى من مجلسة فوق الكنبة الاستديو . انطلقت قامته الطويلة وسط حجرة الجلوس كالمارد . فى شقته يجد راحة شاملة وأحساسا بالسيطرة على كل شىء . الدواوين والمقاعد تصلح للاضطجاج كما تصلح للجلوس . وأجهزة التسلية قائمة بالأركان وسط تهاويل الديكور . والتحف مصفوفة فوق الأرفف عارضة ألوانا من فنون اليابان وخان الخليلى . من أعماقه يشعر بأنها توثق علاقته بالدنيا وتدفع عنه غوائل الفناء . مضى إلى البار فملأ كأسين من الكوكتيل الذى يعده بيده بخبرة وأناة ثم رجع إلى وسط الحجرة فوضع كأسا فوق ذراع فوتيل على بعد قيراط من يد سنية . ولبث واقفا ثم حرك كأسه قائلا :

ـ فى صحتك . .

وأفرغ كأسه ثم قال :

ـ لم يعد غريبا على هذه الحجرة أن تشهد وداع الأحبة . .

فقالت سنية :

ـ أنت رجل كريم ، فى الحياة والحب . .

فقال متظاهرا بالاهتمام :

ـ من حسن الحظ أنى حصلت أخيرا على فيلم ممتاز لا تقل مدة عرضه عن ربع ساعة . .

فابتسمت سنية ولكن بلا حماس . وتذكرت كيف صرخت عند رؤية المشهد الأول من أول فيلم . كان ذلك منذ سنوات وكانت طالبة بالجامعة أو تلميذة بالثانوية . وكانت المفاجأة بالغة الإثارة والرعب . وقال بأسف :

ـ عليات انتهت ، خسارة فادحة . .

ـ إنها مخطوبة وتستعد للحياة الزوجية ، ماذا تتوقع ؟

فقال فى دعابة :

ـ لا بأس من إباحة اللهو حتى الزفاف . .

فرمقته بعينيها الخضراوين وقالت بلهجة ذات معنى :

ـ فكرة الزواج تخنق المرأة من جديد . .

ـ كم من متزوجات! . .

فقاطعته :

ـ هذا موضوع آخر .

ثم وهى تضحك :

ـ ألا تريد للحب أن يحترم يوما أو بعض يوم؟!

ـ حاولت اقناعها . .

ـ أهى مهمة حقا عندك؟

ـ العشرة عندى غالية دائما . .

فضحكت ساخرة هذه المرة وقالت :

ـ يخيل إلى كثيرا أن جميع النساء اللاتى يمررن من شارع شريف أنهن ذاهبات إلى شقتك أو راجعات منها . .

فقهقة حسنى حجازى وقال :

ـ جاجدة من تحدثها نفسها بالسخرية من هذه الشقة .

ـ أنت ترى أننى جئت بكل احترام لاودعها .

فهتفت باسما :

ـ حتى أنت يا سنيةف

فقالت بسرور :

ـ جاء دورى يا قيصر .

ـ حدثنى عنه أبوه، أنه جندى ، أليس كذلك؟

ـ بلى .

ـ أقرأ فى وجهك الرضى .

ـ شاب لطيف وجذاب .

ـ وهكذا قررت هجر العشر كصديقتك عليات!

ـ إنى أحب من يرغب فى الزواج منى!

وقال لنفسه إن المرأة مثال الحكمة وأنها المخلوق الوحيد الذى يستحق أن يعبد، ولكنه قال لها مداعبا :

ـ إذن فهى المصلحة . .

فقالت بعجلة واهتمام :

ـ لقد أحببته، صدقنى . .

ـ أنت مصدقة ولكنى سآسف كثيرا لغيابك .

ـ لنتذوق فى هذه الشقة الوحدة أبدا . .

ـ ولكنها مكان عبور ليس إلا . .

ـ إنه شعار يصلح لأى مكان . .

فتراجع إلى الكنبة الاستديو ثم جلس . أغمض عينيه قليلا ثم قال :

ـ زرت الجبهة أخيرا ضمن وفد المصورين السينمائيين،

والتطت صورا لبورسعيد شبه الخالية . هل سبق لك أن شاهدت مدينة خالية؟

ـ كلا .

ـ كالحلم المرعب!

ـ زرت بوسعيد يوم واحدا قبل الحرب .

ـ أما أنا فعشت فيها ثلاثة أسابيع ونحن نصور فيلم «فتاة فلسطين» منذ أعوام، وهى تعيش وتنام كالمدن، ولكنها تصحو فى أى ساعة من الليل لدى وصول أى سفينة ، وسرعان ما تخلق فيها الحياة بقوة وسرعة فتدب الحركة وتشع الأنوار وترتفع الحرارة، وفى الأماسى تترامى من جنبات الميناء أغانى شعبية غاية فى الفتنة . .

ـ ووجدتها شبه خالية؟

ـ ولم تمس بسوء بخلاف المدن الأخرى .

وصمتت قليلا ثم ساءلت نفسها :

ـ ترى هل تقوم الحرب من جديد؟

فهز رأسه قائلا :

ـ لن يتهيأ ذلك فى القريب، ولن يشجعنا أحد عليه، ولكن الصمود يوفر لنا أطيب شروط عقب هزيمة يونيو . .

ـ الجنود يريدون الحرب . .

ـ هذا طبيعى ، وكذلك الجماهير ، أما نحن فلا ندرى ماذا نريد . .

وتأوه قائلا :

ـ آه يا وطنى العزيز !

فقالت بمرارة :

ـ أما نحن فكفرنا بكل شىء . .

ـ أنتم أبناء الثورة وعليكم أن تحلوا مشاكلكم معها . .

ثم سألها مغيرا نبرته :

ـ كأس أخرى ؟

فهزت رأسها نفيا فقال :

ـ قلت أنى حصلت على فيلم ممتاز !

فتساءلت ضاحكة :

ـ أتذكر فيلم القسيس وبائعة الخبز ؟

ـ هذا عن المرأتين ورجل ، ثم ينقض عليهم رجل غريب جديد !

فسألته :

ـ لم لا تتزوج قبل أن يفوتك القطار ؟

ـ ولكنه فاتنى يا عزيزتى .

ـ توجد زوجة مناسبة دائمة . .

ـ تكلمى بخير وإلا فاسكتى . .

فسألته بجرأة :

ـ هل تحترم حياتك؟

ـ لم أفكر فى تقييمها بعد!

فقالت بامتعاض :

ـ ما يؤلمنى أحيانا أننى سلمت ابتغاء شراء أشياء ، وان تكن ضرورية . .

فقال لها بعطف :

ـ المجتمع يقوم على الأخذ والعطاء فلا تتألمى . .

فضربت الأرض بقدمها الصغيرة وتساءلت :

ـ متى نرى الفيلم الجديد؟!

ـ ٦ ـ

وخيم الهدوء الشامل على مقهى الانشراح فلم يند عنه إلا قرقرة النارجيلة المتقطعة . وكان عشماوى يتناول عشاءه ـ رغيفا وطمعية ـ عند الباب ، أما عبده بدران فجلس على مبعدة يسيرة من حسنى حجازى متحفزا للحديث أو لتقديم أى خدمة . وتساءل حسنى حجازى فى نفسه كيف يواجه رجل مثل عبده بدران أعباء

الحياة الفاحشة الغلاء بأسرته الكبيرة؟ كيف تتوازن ميزانيته المحدودة ولو اقتصر الطعام على الخبز، والكساء على مخلفات سوق الكانتو، والمسكن على بدروم؟ وأولاده مع ذلك تلاميذ فى المدارس، واثنان منهم ـ إبراهيم وعليات ـ أتما تعليمهما الجامعى، فأى معجزة تمارس فى غفلة من المؤمنين! وقال إن ما ينفقه فى ليلة يكفى لاعالة أسرة بضعة شهور، ومع ذلك فهو لا يخلو من تذمر، وإذا مر شهران دون عمل فى فيلم طويل أو قصير تولاه القلق فماذا يكمن وراء نظرة عم بدران الثقيلة الهادئة؟!. وأقنعته عليات بأنها تحافظ على المظهر اللائق بفتاة جامعية بفضل النقود التى تربحها من الترجمة فصدق الرجل الطيب، ولم يخطر بباله أن نقوده هو ضمن النقود التى تسهم فى تربية كريمته!، آه.. يوم عرف عليات عرف أنها كريمة عم بدران، وداخله قلق، وشىء من مناقشة الضمير، ولكنه قتل وساوسة بعقله البارد. وقال عليهم اللعنة فهم يقبلون الضيم والظلم والاستعباد وينقلبون أسودا فاتكة فى وجه الحب واللهو.

وهم أن يسأل عم عبده كيف يواجه الحياة، ولكنه سرعان ما أقلع عن فكرته خشية أن يفسد عليه هدوء جلسة نصف الليل أو أن يشجعه سؤاله على استجداء مساعدة أو طلب سلفة. ولما طال صمت الأستاذ قال عم عبده بدران:

ـ تمت خطبة إبراهيم وسنية أخت مرزوق.

علم بذلك فى حينه فأتحف العروس بهبة مالية كما أتحف عليات من قبل. ولكنه قال:

ـ ايحفظ الله العريس ويسعد العروس .

ـ ناس طيبون وعلى قد حالهم مثلنا وهى موظفة بالاصلاح الزراعى!

فجاء صوت عشماوى من عند الباب قائلا :

ـ لا تعجبنى المرأة الموظفة!

فقال له عم عبده بدران :

ـ جميع بنات درب الحلة تلميذات والكبار منهن موظفات . .

فقال العجوز بسخرية :

ـ ولو!

ـ لو كانت لك بنت لتغير رأيك . .

فقال بفخار :

ـ أنجبت أربعة كلهم ذكور . .

ولكن حسنى حجازى يسمع لأول مرة عن أبناء عشماوى سأله :

ـ ماذا يعملون يا عشماوى؟

ـ اثنان بين الخمسين والستين فى المذبح . .

ثم بفتور :

ـ الثالث قتل تحت الترام ، والرابع فى السجن!

وصمتوا دقيقة اعرابا عن التأثر والتأمل ثم سأل الأستاذ حسنى عم عبده.

ـ وهل يتـزوج إبراهيم فى أول فـرصـة أو يؤجل ذلك لوقت السلم؟

ـ هذا شأنه، أنا أتمنى أن يتزوج اليوم قبل الغد، ولكن متى تنتهى الحرب؟

ـ من يدرى يا عم عبده..

ـ حقا من يدرى، انهم يعانون معاناة الأبطال..

ـ هذ حق.

ـ ومع ذلك فلا يهتم بهم أحد..

ـ كلا، ليس هذا صحيحا، المسألة أن الناس لم يتخلصوا بعد من مرارة الهزيمة..

وجذب حديث الحرب عشماوى من الخارج إلى الداخل فجاء بهيكله الضخم وهو يقول:

ـ ولكن الله سينصرنا فى النهاية..

فقال حسنى حجازى:

ـ قل إن شاء الله.

فقال عشماوى:

ـ كل شىء بمشيئته، لابد أن نهزمهم وإلا فقل على الدنيا السلام.

فسأله حسنى :

ـ وإذا انتهى الموقف بحل سلمى؟

فهتف العجوز الأعمش : أ

ـ أعوذ بالله .

وأراد أن يدلل على قدرة الله فقال :

ـ ربك كبير ، أتصدق أننى ضاجعت الولية ليلة أمس مرتين؟

فذهل الأستاذ حسنى وهتف :

ـ مرتين؟ !

ـ وحق كتاب الله !

ـ عوفيت . . عوفيت يا عشماوى . .

ـ لا تيأسوا من رحمة الله . .

وضحك حسنى عاليا، ونظر صوب عبده بدران فأحنى رأسه مصدقا ! . وعاد عشماوى يقول :

ـ لم حصل ماحصل؟ . . لأننا خسرنا الدين والأخلاق !

وقال حسنى لنفسه : ولكن ما الأخلاق؟ . . أزمتكم الحقيقية أنكم فى حاجة إلى أخلاق جديدة !

- ٧ -

اكتظت ناصية الأمريكين فلا موضع لقدم. تلاصق الشبان تحت الأضواء وانحصر المارة بين الأجسام الحارة الفتية. وقل الكلام أو انعدم وحملقت الأعين وتحركت بعض السيقان بالرقص الخفيف. وثار سالك بحريمه فى عباب الزحام غضبا لكرامته الشخصية فبما بدا وصاح :

ـ اخجلوا من أنفسكم، واذهبوا إلى الجبهة أن كنتم رجالا . .

ولم يخجل أحد فيما بدا أيضا. وتساءل صوت :

ـ لم يريد أن يرسلنا إلى الجبهة قبل الأوان؟

وقال صوت آخر ساخرا :

ـ لعله يظن أنهم يرسلون النساء والكهول!

وشبعت شلة من وقفتها فانسحبت من معسكرها ومضت إلى «جنيفا» فتجمعوا حول بضع زجاجات من البيرة. وجعلوا يشربون ويتكلمون كما يحلو لهم، وغالبا بلا ضابط ولا نظام، غير أن مرزوق أنور تولى مهمة ملء الأقداح وتوزيعها.

ـ مشكلة الجنس فى . . .

قاطعه :

ـ فى الجبهة مشكلة أهم .

ـ إنما أتكلم عن المشكلات الداخلية .

ـ دعه يتكلم ، المقاطعة ممنوعة .

ـ حدثنى أحد الكبار فقال إنه كان يوجد على أيامهم بغاء رسمى .

ـ زماننا أفضل فالجنس فيه كالهواء والماء!

ـ الماء لا يصل إلى الأدوار العليا .

ـ ولكنه يصل إلى الأدوار السفلى!

ـ ليس كالهواء والماء فالبنات تعلمن الاستغلال .

ـ إنها ضرورات العصر .

ـ البراءة تنهزم أمام السيارة مثلا .

ـ توجد دائما فرص طيبة .

ـ كما توجد الباصات .

ـ وحفلات الساعة الثالثة فى السينما .

ـ لا أهمية لذلك، المهم هل الله موجود!

ـ ولم تريد أن تعرف؟

ـ كان شغلنا الشاغل الوحدة العربية والوحدة الأفريقية .

ـ وما دخل ذلك فى وجود الله؟

ـ أصبح شغلنا الشاغل متى وكيف نزيل أثار العدوان .

ـ معى دقيقة واحدة ، أهو موجود؟

ـ كانت أياما مجيدة .

ـ كانت حلما .

ـ بل كانت وهما .

ـ ويصيقون بوقوفنا دقائق فى الناصية !

ـ الكلاب !

ـ إذا قدر لليهود أن يخرجوا فمن سيخرجهم غيرنا؟

ـ من يقتل كل يوم غيرنا؟

ـ ومن قتل عام ١٩٥٦؟ من قتل فى اليمن؟ من قتل عام ١٩٦٧؟

ـ يظن العجوز أن المحافظة على بنت نصف عارية هى كل شىء . .

ـ علينا أن نبدأ من الصفر . .

ـ أن تزاح عن صدورنا الكوابيس .

ـ لا أحد يريد أن يجيبنى ، أهو موجود؟

ـ طيب يا أخى ، إذا حكمنا بالفوضى الضاربة فى كل مكان فلا يجوز أن يوجد !

ـ أليس من الجائز أنه يملك ولا يحكم؟

ـ يكفى أن يكون المصريون من عباده لكى يملك ويحكم!

ـ أأنت شارع فى الزواج حقا؟

ـ نعم. خذ قدحك . .

ـ لماذا؟

ـ لأنى أحب.

ـ وما العلاقة بين هذا وذاك؟

ـ يجب أن نفعل شيئا على أى حال.

ـ بماذا نفسر تفمى الزواج المبكر بين الشبان؟

ـ بالفقر!

ـ بالموت!

ـ بنظام الحكم!

ـ سنضطر إلى الوقوف غدا من شدة الزحام.

ـ أليس من الأفضل أن نهاجر بدلا من أن نتزوج؟

ـ الزواج هجرة داخلية.

ـ الحق أنه يلزمنا شىء من انتهازية الأجيال السابقة.

ـ لا غنى عنها فى الزحام.

ـ إذن فلماذا يخشى العالم الحرب؟

ـ ليست الحرب بأفظع ما يتهدد العالم .

ـ أيوجد ما هو أفظع؟

ـ الفرد غير آ... ن تماما بين أهله ، والأسرة تخشى الجيران ، والوطن مهدد من أوطان شتى ، والعالم يحيط به عالم خفى من الكائنات الضارة ، والأرض قد يخربها خلل بالمجموعة الشمسية ، والمجموعة الشمسية قد تنفجر وتختفى فى ثوان .

ـ أنت مجنون!

ـ ولكن علينا أن نضحك وألا نسمح لشىء بأن يفسد علينا حياتنا الغالية . .

ـ آمين .

ـ آمنين .

ـ آمين .

ـ ٨ ـ

ارتسمت فيوجه عشماوى صورة غير عادية . انغرست فى أساريره غضبة كالحة فولاذية انداحت فوق جفاف الشيخوخة وبروز الفكين وتهدل اللحيين . وعندما استقبل الأستاذ حسنى حجازى لم ينجل شعاع واحد للبشاشة فى وجهه حتى توجس

الأستاذ خيفة مجهولة فقال ـ وهو يتخذ مجلسه ـ لعم عبده بدران:

ـ خير أن شاء الله؟!

وسمعه عشماوى فأقبل نحوه حتى وقف أمامه وتدفق قائلا:

ـ إنى ألعن كل شىء، وألعن فوق كل شىء نفسى، أنى ثائر على ضعفى وعجزى واندحارى فى صندوق القمامة بلا حول، ومن أنا؟! أنا عشماوى الخشن، صاحب القبضة الحديدية والنبوت المخضب بالدماء، أنا من يرتجف عند ذكر اسمه الرجال وتتوارى النساء ويستعيذ بالله منه رجال الشرطة، أنا المجرم الجبار الفتاك الطاغية السفاك النمرود الشيطان..

واختنق بأنفاسه فقال حسنى حجازى بلين ودعابة:

ـ وكيف تشكو الضعف وأنت ذلك كله؟!

ـ أنى أحكى عن الماضى، عن الماضى أحكى لا الحاضر، افهمنى يا أستاذ، كنت رجل درب الحلة وحاميها، وكان الويل نصيب من يتعرض لأحد من أهلها بسوء، بفضلى نعموا بالسلام والأمان. بفضلى بغوا على الخق وهم فى أمنمن العواقب، ان اسمى قانونا وسيفا ونعمة وغنى وفقرا، ماذا جرى يوم اعتدى نذل من القبيسى على رجل من حارتنا؟ هجمت على الحى كالقضاء والقدر، لم أفرق بين متهم وبرئ، تهاوت الضربات على رءوس المارة، حطمت الدكاكين، احترقت عربات اليد، انهمرت الأحجار على النوافذ والأبواب، واسأل عنى أيام سعد، ولا

تسأل عن عدد ضحاياى، وقد عرفت بشارب الدماء منذ ذبحت انجليزيا وشربت دمه المسفوح، هذا هو عشماوى الخشن!

فقال حسنى حجازى وهو يلعنه فى سره:

ـ تاريخك معروف يا عشماوى ولكن لم أنت غاضب؟!

ولكن العجوز لم يجب. ورجع إلى مجلسه عند الباب وغرق مرة أخرى فى الحزن والصمت. ونظر حسنى حجازى إلى عم عبده بدران فى فضول فقال عم عبده بدران باشفاق بلغ حد الخوف:

ـ أصيب شابان من أهل درب الحلة.

فقال حسنى باستنكار:

ـ ظننت أن أيام الفتونة والمعارك قد انتهت إلى غير رجعة.

فقال عبده بدران بوجه شاحب:

ـ أصيبا فى الجبهة!

فوجم حسنى حجازى، ثم تفكر فى كلمة مناسبة يقولها، ولكن عشماوى سبقه صائحا:

ـ قصدتنى جدة أحدهما مستغيثة بى كالأيام الخالية، ظنت الولية أن عشماوى مازال كعهده القديم يستغاث به فيغيث!

فقال حسنى حجازى:

ـ أنهما بطلان يا عشماوى..

فقال الرجل بحنق .

ـ أنت لم رهما ولم تر العنبر . .

ـ زرتهما فى المستشفى؟

ـ زرتهما ، رأيت وسمعت وشعرت بعجزى فلعنت كل شىء كما لعنت نفسى .

فقال حسنى بروح عالية وهو يقصد أولا عم عبده بدران :

ـ هما بطلان ، وهكذا الحرب فى كل زمان ومكان .

فصاح عشماوى :

ـ أنى ألعن العجز . .

ـ سليمة سليمة بإذن الله .

وقال عم عبده بدران ليبدد مخاوفه الشخصية بدعابة :

ـ وأنت يا عسماوى ألا تطالب دائما بالحرب والنصر؟

فتحول غضبه إلى حزن وهو يردد :

ـ الحرب والنصر ولكنى عجوز لا خير فيه!

ـ حسبك أنك شربت من دم الإنجليز فى شبابك!

ثم نظر عبده بدران إلى الأستاذ حسنى وقال :

ـ فى الثورة الأولى كنت دون السن اللازم للجهاد واليوم أنا فوق السن المناسب للحرب فلم أفعل شيئا يذكر للوطن . .

ـ ولكن أبنك فى الجبهة ، خبرنى هل يؤلمك تصورك أنك لم تفعل شيئا؟

ـ أحيانا ولكن أعباء الحياة تغرقنى حتى القمة!

وتذكر حسنى أنه ذو موقف مماثل، وأنه كان يحاسب نفسه فى أزمات تلم به، وأنه كان يطفئ سعارها ببرودة العقل الخالدة، وأنه أوشك أن يقنع نفسه بأنه يفتح شقته للأفراح البريئة والخير! وسأله عبده بدران:

ـ على أي وجه سينتهى الموقف يا أستاذ؟

فضحك حسنى عاليا وقال:

ـ السؤال الخالد! ماذا يمكن أن يقال؟ فلننتظر . .

ـ ولكن الموت لا ينتظر .

ـ إنه سباق ونحن لا نموت وحدنا!

وعند ذلك تساءل عشماوى:

ـ وهل أولاد الأغنياء يقتلون أيضا؟

فلم يتمالك حسنى نفسه من الضحك وقال:

ـ ولكن التجنيد لا يفرق بين غنى وفقير يا عشماوى . .

فهز رأسه فى ارتياب وعاد يسأل:

ـ وهل يرسلونهم حقا إلى الجبهة؟ قلبى يحدثنى بغير ذلك!

ـ لا تصدق قلبك يا عشماوى .

وعكف على النارجيلة . وقال لنفسه إن جلسة الليلة خسرت هدوءها العتيد ، وأن الحزن فيها امتزج بالضحك ، وأن الهزيمة مرة وعواقبها تنتقل من مركز إلى مركز فى المخ ولكنها لن تمحى ، وأن جبلا شامخا انهار ، تبدد حلم عجيب ، وأن خير ما يريح به نفسه أن يترك الأمانة لحامليها . وساءل نفسه وهو ينفث الدخان من فيه وأنفه أين يجد مكانا لا يتردد فيه ذكر الحرب؟!

ـ ٩ ـ

جمعت الشرفة المطلة على النيل الصديقات الثلاث : عليات عبده وسنية أنور ومنى زهران . وكان الخريف يبث فى الجو برودة لطيفة ويزين سماء الأصيل بسحب ناصعة البياض . وقد لبت عليات وسنية دعوة عاجلة إلى مسكن منى بالمنيل فتوقعا أخبارا جديدة وسعيدة . وهى صديقات حميمات منذ الدراسة الثانوية ، وتمتاز منى بجمال رائق يتمثل فى بشرتها الضاربة للبياض وعينيها السوداوين الجذابتين وقامتها الرشيقة المائلة للطول ، كما تمتاز بأسرتها المتوسطة ذات الدخل الموفور ـ الأب مدير إدارة قانونية والأم ناظرة مدرسة متقاعدة باختبارها ـ فضلا عن أنها موظفة بالسياحة منذ عام . وكان لها شقيقان أحدهما مهندس فى بعثة بالاتحاد السوفيتى والآخر طبيب بالمنوفية ويتوقع اختياره فى بعثة قريبة ، ولذلك كانت طموحة تداعبها الأحلام ولا تستقر . وكان مسكن منى يذكر عليات وسنية بمسكن الأستاذ حسنى حجازى

رغم الفارق المحسوس بينهما ولكن الحسد لم يتسلل إلى نفسيهما بفضل العلاقة الحميمة الحارة. وقد توقعتا أخبارا جديدة وسعيدة ولكن منى قالت باقتضاب مثير:

ـ فسخت خطوبتى قبل أن تعلن!

انزعجت الفتاتان حقا، وقالت عليات:

ـ غير معقول!

وقالت سنية:

ـ أى خبر!

وكانت منى قد قدمت لهما ـ منذ شهر ـ فى دار الشاى الهندى شابا يدعى سالم على، قاض بمجلس الدولة، باعتباره الصديق والخطيب المنتظر. ولذلك توقعتا من وراء الدعوة العاجلة أخبارا جديدة سعيدة لا هذا الخبر الأسيف. وقالت سنية وهى تعز رأسها هزة ذات معنى:

فقالت منى بتحد:

ـ ظنك صادق دائما معى!

ـ ولكنه شاب جذاب وذو مركز يا منى؟

وقالت عليات:

ـ وكان واضحا أنه يحبك وأنك تبادلينه الحب؟

عند ذلك تململت من الضيق وربما من عاطفة لم تستطع بعد أن

تقتلعها من أعماقها، فثبت لهما أنها دعتهما لحاجتها إلى الأنس والعزاء، ولكنها قالت بنبرة لم تخل من حدة:

ـ عرفت عن يقين أنه يقوم بتحريات عنى!

وساد الصمت حتى قالت سنية:

ـ أهذا ما أخذته عليه؟

ـ وهو كاف وفوق الكفاية.

فقالت عليات:

ـ أراهن على أنه فعل ما فعل بحسن نية!

ـ أنا لا أتهمه بسوء النية ولكن بسوء العقلية أتهمه..

ثم مستدركة بانفعال شديد:

ـ ولم أتردد فواجهته بالتهمة، تلعثم وحاول أن يفسر سلوكه بغير بواعثه الحقيقية ولكنى رفضت تفسيره وطالبته باحترام نفسه فاعترف واعتذر بسخافات لا أذكرها ولا أحب أن أذكرها فلم أقبل عذره، وقلت له ولم لا تسعى إلى الزواج عن طريق خاطبة، وسألته عما يريد معرفته عنى أكثر مما يعرف أو مما يمكن أن يعرف بالاتصال المباشر وبالحب المزعوم، قال أنه برئ وأنه يحبنى وأن سمعتى نقية مثل الورد فضحكت ساخرة وقلت له إنى أحتقر تحرياته وأحتقر النتائج التيوصل إليها وأنه خدع أو أنه لم يحسن التحرى. وقلت له ماضى ملكى وحدى كما أن ماضيه ملكه وحده وأننى أرفض كافة أنواع العبودية فى أى زى تزيت وبأى

اسم تحلت، وأنه لا يصلح لى كما لا أصلح له . .

وسكتت وهى تلهث والغضب يرتعش فى شفتيها ويدلهم فى عينيها . وبدا أن صديقتيها لا تؤيدانها فى موقفها وان شاركتاها فى الإحساس والرؤية . تساءلت عليات :

ـ ألم تبالغى يا منى؟

وقالتسنية :

ـ هى تقاليد بلادنا !

فزهت منى رأسها بعناد وقالت :

ـ أنى أرفض ذلك كله . .

فقالت سنية :

ـ إنهم معقدون ويحتاجون إلى ترويض طويل .

وقالت عليات وكأنما تتم الكلام :

ـ لا إلى التحدى . .

فقالت منى بعجرفة :

ـ أفضل أن أبقى بلا زواج إذا كان الثمن كذبة سخيفةوجراحة دنيئة !

فقالت عليات :

ـ ولكن ظروفنا حرجة كما تعلمين . .

ـ لا يمكن أن أتهاون فى مبادئى وأخلاقى .

أجل فهى معروفة بأخلاقياتها . وهى لم تمارس الجنس إلا بدافع من الحب ، ولم تضطر ـ مثلهما ـ إلى ممارسة فى أحيان كثيرة لاقتناء ما يحتاجان إليه من ملابس وأدوات زينة وكتب . ولعلها كانت تحتقر سلوكهما وأن عطفت عليه من أعماق قلبها المحب . وقد تابعت خطوات خطوبتهما وما اقتضته من شهادات الزور والأكاذيب وغير ذلك ، ولم ترتح لشىء منه وان تعزت بأن جميع تلك السخافات إنما ارتكبت باسم حب حقيقى . وكانت محاولة اثنائها عن موقفها ميئوس منها لما تعرفان من عنادها وكبريائها ومثالياتها ، فسلمتا بالواقع فى حزن وكآبة . وقالت لها عليات :

ـ أنت يا منى جميلة وممتازة وجديرة حقا بزواج سعيد!

فسألتها منى :

ـ ترى هل تطمئنان إلى مستقبلكما القائم على كذبة كبيرة؟

فقالت سنية :

ـ أنه يقوم على الحب .

أما عليات فقالت بقلق :

ـ إن رجلا مثل حسنى حجازى خليق بصون سرنا .

فقالت منى :

ـ حسنى حجازى لا نتوقع منه الخيانة .

فعادت عليات تقول :

ـ أحيانا أتذكر المصادفات المرعبة التى تقلب الأمور فى السينما !

فقالت سنية بقوة متحدية :

ـ لم يكن فى وسعنا أن نفعل خلاف ما فعلنا وعلينا أن نواجه مصيرنا .

وفجرت الزيارة فى نفس عليات وسنية دوامات من القلق ولكن استقر فى أعماقها فى النهاية قول سنية «علينا أن نواجه مصيرنا» .

ـ ١٠ ـ

لم تسعد منى بانتصار كبريائها . أو لم تسعد كما قدرت . وفى أوقات انفرادها بنفسها غزتها الكآبة كالغبار . خافت أن ترتكب حماقات بلا نهاية . اعترفت لنفسها المتمودة بأنها مازالت تحب سالم رغم حماقته وسخافاته . أدركت أنها تقف حيال مشكلة وأن المشكلة تتطلب على أى حال حلا . وجاء شقيقها الدكتور على زهران إلى القاهرة فى إجازة فسرت بحضوره وقصت عليه تجربتها الفاشلة . وأسف الرجل ولكنه كان مستغرقا بهموم طارئة فقال لها :

ـ إنى أفكر فى الهجرة !

فدهشت منى وتمتمت !